أبو الطيب المتنبي

نظرات سريعة فى حياته

للدكتور احمد ضيف

الأستاذ بدار العلوم

ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الشهير بالمتنبي ، بالكوفة فى محلة يقال لها « كندة » وإليها ينسب ، وكانت ولادته سنة ٣٠٣ هـ .

وكانت الكوفة مقر علماء اللغة العربية ، وبلاد العراق محط العلم و العلماء ، فمال المتنبي إلى تعلم اللغة العربية ، وأكب على القراءة والدرس ، وكان ذكى الفؤاد قوى الحافظة ؛ فوعى كثيرا من رسائل اللغة ومفرداتها ، وحفظ كثيرا من أشعار العرب وكلامهم ، وأحاط بغريب مفردات اللغة إحاطة تامة .

ذكر ابن خلكان ، أن أبا على الفارسى ، قال له يوما : « كم لنا من الجموع على وزن فِعْلى » فأجابه المتنبي : حجلى وظربى . قال أبو على : « طالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا فلم أعثر على شيء » . وقد كان من حبه لمعرفة صحيح اللغة ، أنه ذهب إلى البادية لتعلمها ، ومعرفة الصحيح منها . قالوا : « كان أبو الطيب وهو صبي ينزل فى جوار الكوفة ، وكان محبا لأهل العلم ، وصحب الأعراب فى البادية . وجاءنا بعد سنين بدويا فحا ، وتعلم القراءة والكتابة ، فلزم أهل العلم والأدب ، وأكثر من ملازمة الوراقين ، فكان علمه من دفاترهم . »

وهذا يدل على مقدار حبه للقراءة والدرس ، و يروون عنه أنه كان قوى الحافظة حتى لقد كان يطيل النظر أحيانا فى الكتاب ، فاذا طواه حفظه وعلق بذهنه ، وهذا ـ على ما فيه من المبالغة ـ يدل على قوة الحافظة لديه .

* * *

وكان أبو الطيب منذ صباه ذا نفس طامحة ، وآمال واسعة ، يرى نفسه فوق النفوس ؛ فطمح إلى أقصى ما يطمح إليه إنسان .

خرج به أبوه إلى بادية « كلب » بالشام فتوسموا فيه هناك الذكاء، وبهرهم بفصاحة شعره، وبلاغة قوله، حتى ظن أنه بذلك قد فاق البدو الخلص.

ثم وجد أن الاضطراب سائد فى أنحاء المملكة الإسلامية، وأنه قد يصير الصعلوك أميرا، والسوقى حاكما؛ فأراد أن يكون أحد كبار الحكام، أو أن يكون أميرا من الأمراء. فقالوا: «إنه ادعى النبوة». واشتهر أمره فى ذلك حتى لقب بالمتنبى. «وذكروا عنه أنه عارض القرآن الكريم بكلمات مسجعة، كما رووا عنه أنه قال: «والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفى أخطار، امض على سننك، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين؛ فإن الله قامع بك زيغ من ألحد فى الدين، وضل عن السبيل.»

ويروون عنه قصة طويلة، هى أشبه بأسطورة واختلاق، فى ادعائه النبوة، ويقولون: إنه اتبعه جماعة من أهل الشام، وآمن به أناس كثيرون.

وقالوا: إنه كان يدعى أن الأرض تطوى له، وإنه كان يجوب الصحارى، ويقطع الرمال، ويعرف مهاب الرياح، ونسبوا إليه كثيرا من الأفعال والأقوال التى يظهر أنها مختلقة عليه؛ لبعد صدورها من عاقل مثله، قالوا: «ولما اشتهر أمره، وذاع ذكره، وخيف من زعامته، خرج عليه لؤلؤ (أمير حمص من قبل الإخشيد)، وقبض عليه ابن على الهاشمى فى قرية يقال لها «كوتكين»، ووضع فى رجله وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف وسجنه. وبعد مدة استتابه وأطلقه.»

ولما خرج من السجن اتصل بكثير من الأمراء، منهم أبو العشائر الحسن بن على ابن حمدان والى أنطاكية. فمدحه بقصائد تعد من غرر كلامه؛ منها قصيدته الشهيرة التى بدأها بقوله:

أَتُرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِى الْمَآقِى

ثم اتصل بسيف الدولة بن حمدان أمير حلب والجزيرة، وقدمه إليه أبو العشائر، وأثنى عليه؛ فعرف سيف الدولة قدره، وحسن موقعه عنده، فقربه، وأجازه الجوائز الثمينة، ومالت نفسه إليه وأحبه. وصاحب أبو الطيب سيف الدولة فى غدواته وروحاته وحروبه، ومدحه بمدائح سار ذكرها فى كل مكان،

ورفعت من أمر سيف الدولة ؛ فزادت منزلة أبي الطيب من نفسه ، وقدمه على غيره حتى وغرت صدور حاسديه عليه ، وحقد عليه منافسوه فى الحظوة لديه ؛ وشعر المتنبي بذلك ، فصار يوجه نظر الأمير إلى مقاصد هؤلاء الوشاة ، ويلتجىء إليه فى التخلص من وشاياتهم ويذكر ذلك فى شعره ، كما قال وهو يمدحه :

أَزِلْ حَسَدَ الْحُسَّادِ عَنِّي بِكَبْتِهِمْ ... فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِيَ حُسَّدَا

وقال :

وَلِلْحُسَّادِ عُذْرٌ أَنْ يَشِحُّوا ... عَلَى نَظَرِي إِلَيْهِ، وَأَنْ يَذُوبُوا

فَإِنِّي قَدْ وَصَلْتُ إِلَى مَكَانٍ ... عَلَيْهِ تَحْسُدُ الْحَدَقَ الْقُلُوبُ

وكان لأبي فراس الحمدانى اليد الطولى فى إثارة غضب سيف الدولة على أبي الطيب ، لحقده عليه ، حتى لقد كان ينقد شعره ؛ ويرميه بسرقة المعانى فى حضرة سيف الدولة ، وكان أبو الطيب يعرّض به فى قصائده ، ويرميه بسهام كلامه أثناء إنشاده بحضرة الأمير ؛ فلما أنشد المتنبي سيف الدولة قوله :

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي ... وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

قال أبو فراس : فما أبقيت للأمير ، إذ وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة ؟ ؟ تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك ، وتأخذ جوائز الأمير ! وذكر له الشعر الذى سرق منه . وهكذا كان يتعقب أبا الطيب ؛ ليحط من قدره .

ومع شدة إعجاب سيف الدولة بالمتنبي ؛ لم يطق صبرا على ما كان به من كبر وإعجاب بنفسه ، وزاد من ذلك وشاية الواشين . ثم حدث أن جرت مناقشة فى مسائل لغوية ، بين أبي الطيب وأبي عبد الله بن خالويه النحوى ، بحضرة سيف الدولة ، فقال المتنبي لمناظره : اسكت ويحك ؛ فإنك أعجمى ؛ فمالك وللعربية ؟ فأخرج ابن خالويه من كمه مفتاحا وضرب به وجه المتنبي ، فسال الدم على وجهه وثيابه ، ولم ينتصر له سيف الدولة ، فغضب أبو الطيب وفارقه ، وسار إلى دمشق سنة ٣٤٦هـ

وقد كان مدح المتنبي لسيف الدولة، وظهوره هو نفسه بمظهر الزعماء، ثم شيوع أمره بين الناس - مما أثار عليه حقد الحاقدين والحاسدين والمنافسين له، حتى عزموا على التنكيل به. فما رووه فى ذلك أنهم كانوا يطاردونه فى كل مكان ينزله، وما زالوا به حتى وقع فى يدابن على الهاشمى، فى قرية يقال لها كوتكين فوضع فى رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف وسجنه. وقد بقى المتنبى فى السجن زهاء سنة ثم أطلق سراحه. أو أنه وفد باللاذقية سنة ٣٢١ هـ على معاذ بن اسماعيل وأخبره بادعائه النبوة، فأخبر بذلك والى حمص، فقبض عليه وسجنه. والروايات مضطربة فى ذلك. والمفهوم أن سجنه كان من أجل ميوله وخروجه على الإمارات القائمة، ومن حقد الناس عليه وخوفهم منه.

ولما علم به كافور الإخشيدى (حاكم مصر إذ ذاك) - وكانت دمشق تحت حكمه - استدعاه إلى مصر؛ فرحل إليه، فأكرمه كافور، وطالبه بمدحه، فمدحه كما كان يمدح سيف الدولة، ووضعه فى صف الاشراف والنبلاء، مع أنه عبد خصى، وذلك لحاجة فى نفسه. ثم طلب إليه أن يوليه (صيدا) من بلاد الشام، أو غيرها من بلاد الصعيد، فأبى كافور عليه ذلك، خوفا من أن يخرج عليه ويستقل بالحكم، وقال: «إن الذى ادعى النبوة لجدير بأن يخرج على مثلى». فوقعت الوحشة بينهما حتى أقام كافور عليه الأرصاد والعيون، فانتهز ابو الطيب الفرصة. ورحل من مصر إلى بلاد فارس، ومدح عضد الدولة بين بويه الديلمى، وابن العميد، ونال منهما الجوائز العظيمة. ثم خرج إلى الكوفة، فعرض له جماعة فيهم «فاتك ابن أبى جهل»، فقاتلوه هو ومن معه حتى قتل هو وابنه (محسّد) فى «النعامية» بالقرب من بغداد، وكان ذلك لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ٣٥٤ هـ.

***

وقد كان عصر المتنبى - كما هو معروف - عصر اضطراب سياسى وعقلى، ففيه كان انقسام الدولة الاسلامية إلى ممالك وإمارات كثيرة، وقد شغلت الميول والأهواء عقول المسلمين، فكثرت المذاهب والآراء الفلسفية والسياسية والاجتماعية. وظهرت حرية الرأى ومسائل الالحاد، وألبس ذلك كله لباسا دينيا،

ودب دبيب التفرقة بين المسلمين . وكان الشعراء يجيئون ويروحون بين هؤلاء وهؤلاء . وأثرهم ظاهر فى السياسة والاجتماع ، يعتز بهم الأمراء والحكام ، ويتنافسون فى الاختصاص بهم . وكان أبو الطيب من أسبق من جلى فى ميادين الشعراء ، مع ماكان يحمله فى نفسه من إباء وكبرياء ، يرجع إلى صغره ، ومعاشرته لأولاد الأشراف الذين كان يرافقهم فى معاهد التعليم فى الكوفة . فقد قالوا : إنه كان يختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة وتلقى معهم العلم . ولم يعرف عن المتنبى أنه تلقى العلم فى معاهد معروفة ، ولا درس دراسة منظمة ، ولا كان من كبار العلماء أو الفلاسفة فى علم من العلوم ، سوى ماكان معروفا عنه من التعمق فى فنون اللغة العربية ، كما سبق ، ولكن مما لاشك فيه . أن انتشار العلوم الفلسفية اليونانية وعلوم الاجتماع ، ونضج الثقافة العربية الاسلامية فى تلك الأيام ، وكثرة الجدل والمناقشات فى المسائل السياسية والدينية — كان له أثر عظيم فى نفس أبى الطيب . وكان بطبعه ذكى الفؤاد ، حاضر الذهن ، قوى الذاكرة ، صفى القريحة ، فوعى من كل ذلك شيئا كثيرا ، وألم بكثير من تلك المسائل ، حتى أصبح ذا ثقافة واسعة ، واطلاع عظيم .

ولكنه استعان بكل ذلك على تغذية شعوره ونفسه الطامحة ، وتقوية ملكة النقد فى نفسه ، حتى أصبح من الغلاة فى ذلك .

* * *

ليست حياة المتنبى حياة شاعر أديب فحسب ؛ بل حياة رجل سياسى ، أو رجل من أصحاب الاطماع والنفوس الكبيرة والآمال الواسعة ، كان يعتقد بحق أنه أجدر من غيره بالاستئثار بالملك ، وإدارة الشؤون العامة ، واكتساب جاه عظيم ، وسلطان كبير ؛ لشدة ذكائه ، وقوة إدراكه ، ورجحان عقله ، وسداد رأيه . وزاد فى طموحه ماكان يراه : من ضعف هؤلاء الحكام من عرب وعجم ، واضطراب فى الادارة والسياسة ، واحتقاره لهؤلاء الناس جميعا ، بين حاكم ومحكوم . ألم يكن أحق بالحكم والزعامة من ذلك العبد الخصى (كافور) ؟ ألا يكون أقدر على سياسة الدولة من مثل هؤلاء الحكام ، الذين لا يفهمون ، ولا يعون من سياسة الأمم

سوى السلب والنهب والبطش ؟؟ وهل هذه الأمم التى يقودها مثل هؤلاء الجهلة، يكون فيهم من يضارعه عقلا وسدادة رأى وحكمة وحصافة ؟؟ . ثم ما هذا الحظ العاثر الذى ينزل بمثله إلى هذا الدرك ؟ وما هذا القدر العجيب الذى يرفع من هو دونه إلى أعلى المراتب ؟ ؟

هذه الهواجس وأمثالها ـ مما لاشك فى أنها تملأ رأس المتنبى وتستولى على عقله ـ هى التى أملت عليه معانى شعره ، وهى التى حفزته ودفعته لأن يبثها فى كلامه . وهى التى هيأت نفسه وأعدتها لأن تكون نفسا متشائمة ، مبتئسة صاخبة هذا الصخب ، ثائرة ناقمة من العالم وما فيه ، حقوداً أحيانا — بل كثيرا — على الناس والوجود وأحوال الاجتماع . ذلك لأنه كان يرى نفسه فوق النفوس ، فينظر إلى الناس نظرة احتقار وازدراء ، ويطمح إلى أقصى ما يطمح إليه انسان .

وكانت هذه الصفات النفسية والخلقية هى كل شعر المتنبى ، أو أن شعر المتنبى هو كل ذلك .

وليس ما يمتاز به شعره من قوة التفكير ، وكثرة النظر فى أحوال الناس والحياة ، ناشئا من القراءة والدرس كما قلنا ، أو معرفة كلام الحكماء والفلاسفة ـ بقدر ما هو منبعث من نفسه ، وما تمتلىء به من الحوادث التى وقعت له أو شاهدها ، وما كانت تمليه عليه ميوله وأطماعه ، وما كان يرمى إليه فى حياته .

وهذه النفس الكبيرة الطامحة ، التى دفعته إلى التعبير عما يجول بها ، هى التى جعلت شعره فى هذه المنزلة ، وهى التى جعلت هذا الشعر حقيقة لا خيالا ، وصورا من صور الأحوال النفسية لا صناعة ولا تصملا . والحقيقة — أيا كان مصدرها — إذا اتجهت إلى القلب نالت منه وسكنت فيه ؛ لأن هذه الآلام والاطماع والميول ، آلام واطماع وميول لكثير من النفوس البشرية . وهى حنين مرجع ، وأنين مبثوث فى قلوب الشعراء ، تكشف بها عن غيرها من النفوس البشرية ، ولكن ليس كل شاعر قادرا على أن يرسمها رسما جذابا ساحرا ، يملك النفوس ويستولى على العقول . وليست بلاغة الشعر فى سبك العبارة ودقة الصناعة اللفظية وحدها ، بل فيما يبثه الشاعر بين عباراته من نفثات صدره ، ومما

يجول بنفسه، ومن ذلك الروح السرى الخفى المعنوى الذى يمتلكه الفنى وحده فى رسم الحقائق وإبرازها، لأن الشاعر الفنى يرمى إلى غرضين: غرض فنى صرف، وهو ما يدعو إلى الجمال الذى يجلب السرور والاعجاب للقراء، بارتياح النفس إلى المعاني الجزلة، والألفاظ المختارة، وتناسق العبارة، وحسن الأسلوب، وتأنق التراكيب. وغير ذلك مما ذكره العرب ونقادهم من أنواع المعانى والبيان والبديع. وهذا الجزء الفنى من البلاغة، هو أحد أركانها وأكبر دعائمها؛ إذ بدون ذلك لا تعد البلاغة من فنون الجمال فى شىء.

والغرض الثانى هو الحقيقة المنطوية فى غضون ذلك الكلام، التى يكشف بها الفنى عن كثير من المعانى الخفية فى النفوس، وأسرار الكون، وحقائق الموجودات، والآراء الاجتماعية والفلسفية، وصور الناس والإنسانية. فغرض الشاعر أن يتسرب فى النفوس، ويستولى عليها بجمال الافتنان، ويجذبها إليه بأسلوبه وبيانه، ويهذبها ويثقفها بمعانيه؛ ليرشدها إلى حقيقة من الحقائق الانسانية. ولقد يدرك الفنى ما لا يدركه غيره، لأنه دقيق الإدراك، قوى الملاحظة، سريع الخاطر، تخترق نفسه الحجب، فيرى مالا يراه غيره، لذلك يمكن أن يكون مساويا للفلاسفة أو الحكماء، فى الإفاضة على الإنسان من أسرار الكون وحقائق الوجود.

ولا شك فى أن أبا الطيب المتنبى من هؤلاء الشعراء.

* * *

لقد اشتهر أبو الطيب بأنه شاعر الحكمة، وقال عنه الأدباء: إنه وصاف للحروب ابتدع فى وصفها وأجاد رسم صورها، كما نظم الحكم والأمثال. والحقيقة أنه جعل شعره مظهرا من مظاهر التفكير الإنسانى، وصورة من صور العقول المفكرة، فأودعه جل ما يجول بالفكر ويمر بالخاطر: من أثر النظر فى الحياة وأحوالها، والناس وأخلاقهم. ولكنه مزج ذلك كله بميوله وأخلاقه. ويكاد يكون كل معنى ذكره فى شعره مصبوغا بتلك الصبغة الخلقية الشخصية، ظاهرة فيه أهواؤه وأغراضه: من نقمته على الدنيا ومن فيها، واستعظامه قدر نفسه والحط من شأن غيره.

ومع أنك تجده شاعراً ، فيلسوفا ، كبير النفس ، عالى الهمة ؛ تجده قد نزل بنفسه فمدح وتملق ، واحتمل ما قد يكون من جراء ذلك من كذب صراح ، أو ما يجعله عرضة للطعن فى أخلاقه ؛ كما يرى ذلك من مدحه وذمه لشخص واحد ؛ حيث يرتفع به مرة إلى السماء ، وينزل به أخرى إلى الدرك الأسفل : كما فعل فى مدائح كافور

ولكنه مع ذلك ، شاعر فذ فى أسلوب التفكير وانتحائه منحى جديدا فى الشعر العربى منبعثا من نفسه الفياضة ، المملوءة بالمعانى النفسية والاجتماعية ، لا بالأخيلة والألفاظ . وتجد ذلك فى كل أنواع شعره . وكثيرا ما تغلب هذه النزعة عليه ، فإذا مدح خيل أحيانا أنه لا يريد بكلامه مدحا ، وإنما يتخذ ذلك وسيلة لينفس بها عما فى نفسه ويكشف عما بها ، وكأنه نسى أنه يمدح إنسانا يرجو منه الخير أو العطاء ، بل يشكو الزمان وأحواله ، ويذم الناس والحياة ، ويغضب من الأقدار ، وتجول نفسه جولات فى كل معنى من هذه المعانى ، وقد نسى موقفه واستسلم لنفسه الهائجة الثائرة الناقمة . فإذا أفرغ جعبته من ذلك ، رجع إلى المدح وقد هدأت نفسه ، وأخذ يكيل الثناء لممدوحه كيلا : كما قال يمدح المغيث بن على بن بشر العجلى :

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدَامُ ... وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ

وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ ... وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَامُ

وَمَا أَنَا مِنْهُمُو بِالْعَيْشِ فِيهِمْ ... وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

أَرَانِبُ غَيْرَ أَنَّهُمُ مُلُوكٌ ... مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُمُ نِيَامُ

بِأَجْسَامٍ يَحَرُّ الْقَتْلُ فِيهَا ... وَمَا أَقْرَانُهَا إِلاَّ الطَّعَامُ

وَخَيْلٍ مَا يَخِرُّ لَهَا طَعِينٌ ... كَأَنَّ قَنَا فَوَارِسِهَا ثُمَامُ

خَلِيلُكَ أَنْتَ، لاَ مَنْ قُلْتَ خِلِّى ... وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالْكَلاَمُ

وَلَوْ حِيزَ الْحِفَاظُ بِغَيْرِ عَقْلٍ ... تَجَنَّبَ عُنْقَ صَيْقَلِهِ الْحُسَامُ

وَشِبْهُ الشَّىْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ ... وَأَشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ

وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إِلاّ ذُو مَحَلٍّ تَعَالَى الْجَيْشُ وَانْحَطَّ الْقَتَامُ
وَلَوْ لَمْ يُرْعَ إِلاّ مُسْتَحِقٌّ لِرُتْبَتِهِ أَسَامَهُمُ الْمُسَامُ

ويصف لك الخلق المذموم المعروف فى الناس ، ويشرح لك موقفه وهو يريد أن يرشد العالم إلى ما يجب اتباعه فيقول :

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
يُحِبُّ الْعَاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِي وَحُبُّ الْجَاهِلِينَ عَلَى الْوِسَامِ
وَآنَفُ مِنْ أَخِي لِأَبِي وَأُمِّي إِذَا مَا لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الْكِرَامِ
أَرَى الْأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيرًا عَلَى الْأَوْلَادِ أَخْلَاقُ اللِّئَامِ
وَلَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ بِأَنْ أُعْزَى إِلَى جَدٍّ هُمَامِ
عَجِبْتُ لِمَنْ لَهُ قَدْرٌ وَجَدٌّ وَيَنْبُو نَبْوَةَ الْقَضِمِ الْكَهَامِ
وَمَنْ يَجِدُ الطَّرِيقَ إِلَى الْمَعَالِي فَلَا يَذَرُ الْمَطِيَّ بِلَا سَنَامِ
وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

وينعى على الانسان أمله فى الحياة ، وينكر على طبيعته الزهد . ويتهمه بعدم القناعة إلا عند العجز ، وهو يظهر جلده وتحمله لأعباء الحياة ، ويصور نفسه زاهدا فى الدنيا ، أو متحملا لأشد أعبائها فيقول :

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا ؟ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوِصَالِ
نَصِيبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ
رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

وَهَانَ ، فَمَا أُبَالِي بِالرَّزَايَا لِأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالِي

وينكر بعض أخلاق الناس فيرسمها فى كلامه ، ويعقب عليها برأيه ، كأنه حكيم يقول الحكمة . فيكون كلامه مثلا سائرا كقوله :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمُ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا؟

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا

مُضِرٌّ ، كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

ويرثى ، فتراه ينظر نظرات بعيدة فى الحياة وأحوال الناس ، ويضع الرفيع فى كلامه أمام الوضيع ، والعامة والخاصة فى ميزان واحد ، ويُذكّر الإنسان بنهاية هذه الحياة ومآل الناس فيها ، ويتعمق فى الخيال ، ويغلظ فى القول ، ويقسو فى إبراز المعانى ، حتى يحملك على الزهد واحتقار الدنيا ؛ فيقول :

نَحْنُ بَنُو الدُّنْيَا ، فَمَا بَالُنَا نَعَافُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ

تَبْخَلُ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا عَلَى زَمَانٍ هُنَّ مِنْ كَسْبِهِ

فَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَوِّهِ وَهَذِهِ الْأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ

لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ

يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ مِيتَةَ (جَالِينُوسَ) فِي طِبِّهِ

وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمْرِهِ وَزَادَ فِي الْأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ

وَغَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي سِلْمِهِ كَغَايَةِ الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ

فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فُؤَادُهُ يَخْفِقُ مِنْ رُعْبِهِ !

وليس فى وسعنا الآن أن نقول كل شىء عن المتنبي وشعره ، فنكتفى بذلك .

احمد ضيف